السماع الصوفي وأثره في الموسيقى العربية

امحمد شيخ جامعة تلمسان – الجزائر–

ملخص:

كان السماع والموسيقى إحدى وسائل التي انتهجها بعض الطرق الصوفية، ومن بين أولى هذه الطرق هي الطريقة المولوية التي أسسها جلال الدين الرومي فجعل من السماع والرقص في الأذكار الصوفية إحدى اسس طريقته، فالسماع يصنع لنا إيقاعات مؤثرة إلى النفوس، وحركات الرقص في الأذكار فيها تصعيد للرغبات وترويض للنفس، و هذا يجعل من روح الصوفي تطير و تجوب في ملكوت العشق الإلهي فكان التصوف، يبحث عن التخلص من الجسد و مادية الدنيوية، والتحليق في عالم الروحانيات، فكان السماع والموسيقى هو الأداة التي تحقق هذا.

الكلمات المفتاحية: السماع، النص، الموسيقى، الجسد، الكمال، الذات الإلهية.

إن الموسيقى هي اللغة العالمية الوحيدة التي يكون السمع الطريقة لاستيعابها وفهمها ،لا نحتاج فيها إلى طرق التعليمية ،فكان لها ودور أساسي في حياة البشر و حتى أثر إيجابي على صحة الناس، هذا بالإضافة إلى ما تتركه من أثر على النفس فتمتعها و تهذبها ، والموسيقى تعبير عن مشاعر الناس وأحاسيسهم حين تفشل وتعجز الحروف عن التعبير ، ولا تعتبر الموسيقي فنا المراد منه مجرد اللهو والترويح عن النفس ، بل تعتبر ثقافة للمجتمع ولا يمكن الاستغناء عنها ، وتمثل جانب مهم لحياة الناس، وقد كان لتحرير هذه الرغبة و تحققها امتدادا في تاريخ الحضارات القديمة ،فنجدها تمد في الحضارة اليونانية وقبلها الحضارة المصرية والحضارة الصينية والحضارة الهندية وتختلف استعمالاتها بين طقوس السحر والمعتقدات الدينية .

يرى أفلاطون في الموسيقى أنها أرفع الفنون وأرقاها لأنها تؤثر تأثيرا مباشرا في النفس الباطنة ووسيلة لتحقيق التطهير الروحي وتحرير النفس من ارتباطها بالجسد، بما ينعكس إيجابا على أعضاء الجسم وأجهزته، فالنظرية الأفلاطونية ترى أن النظام الموسيقي شبيه بالنظام الأخلاقي السائد في الكون ، وأن الموسيقى تستطيع أن تهذب نفس الإنسان إذ اقتصر على السماع الموسيقى المعدة إعدادا سليما –هذا الرأي قد تعرض في العصر اليوناني-الروماني لإنتقادات بعض الفلاسفة ذوي العقليات التجريبية مثلما انتقده أرسطو كسينوس و ثيو فراسطس في العصر اليوناني[1].

ما هو معروف في تاريخ العرب أنهم لم يتعرفوا على التلحين و الأنغام قبل الإسلام، وما الموسيقى إلا عبارة عن ترانيم يقوم بها المطرب تبعا لميولاته و ذوقه ، فكانت طقوس دينية مختلطة بالغناء و التهليل يقوموا بها الناس وهم يحجون في بيت الله ، و في المحافل المناسبتية كسوق عكاظ حيث كان الموسيقيون والشعراء يتنافسون، فالاهتمام بالموسيقى عند العرب هو قديم جدا ،و لعل هذا راجع لكون الشعر العربي ارتبط بالبحور والتناغم الصوتي ،وكون اللغة

[1] فؤاد زكريا، الفيلسوف و فن الموسيقى، دار الوفاء للطباعة و النشر، مصر، الطبعة الأولى، سنة 2003، ص 66-67

العربية هي لغة موسيقية أساسها الأذن السماعة ، وبالإضافة لكونها لغة القرآن الكريم الذي يعتبر لتجويده و ترتيله نغما و إيقاعا جميلا مؤثرا في السامع وفي القلوب .

و فيما يخص الآلات الموسيقية المستعملة في تلك الفترة فلم تتعدى مجرد آلات الإيقاع مثل الطبل والدف أو آلات النفخ مثل المزامير ،وقد كان المطرب الذي يستعمل هذه الآلات صوت جميل يشدو به ، فيجعل في النفوس المستمعة تلذذ و نشوة ، ولعل أبرز أمثال هؤلاء : المهلهل و الأعشى و كذلك قد لعبن النساء دورا في الموسيقى العربية قديما ،فكان يغنين في قصور الملوك و الحانات و أماكن اللهو والسمر أو في صحبة الجند أثناء الغزو وأمثالهن الخنساء و أم حاتم الطائي وهند زوجة أبي سفيان...الخ ، وبظهور الإسلام أدخل تحولات جديدة على حياة العرب ، بداية من مكة و المدينة ، لتتسع دائرته ، وعرفت الموسيقى في فترة الخلفاء الراشدين رفضا و تحريما لها ، لتبدأ حدة التعصب ضدها تقل بالتدريج في فترة خلافة عثمان وعلي وهذا للتطور في مظاهر الحياة .

عرف الخلفاء الأمويين ومن بعدهم العباسيين بولعهم بالفن، وأصبحت قصور الأمراء أماكن للموسيقي، وكانوا يجزون العطاء للموسيقيين بالهدايا والأموال، فبعدما استقرت الدولة العربية الإسلامية ازدهرت بطبيعة الحال العلوم والفنون والآداب والموسيقى.

كان العرب السباقين لرسم قواعد السلم الموسيقي والانكباب على الموسيقى بالدراسة والبحث فيها أمثال إخوان الصفا والكندي وغيرهم ، ويعتبر كتاب "رسالة في الموسيقى" لابن منجم وهو ابرز تلامذة اسحق الموصلي نموذجا رائعا في دراسة السلم الموسيقى العربي ، حيث اعتبر نموذجا أعتد به في الدراسة حتى القرن الخامس عشر ، إن فقدان الكثير من المراجع والدراسات حول الموسيقى عبر الزمن يجعلنا لا نحصى الكم الذي تناولها ، بالإضافة إلى الكثير من الأعمال النقدية التي تناولت الموسيقى سواء باستحسانه والإشادة بضرورته في الحياة أو برفضه والدعوة إلى تحريمه ، ولعل أبرز الكتب في رفضها وانتقادها كتاب ابن تيمية " رسالة السماع والرقص والصراخ "، وكذلك كتاب ابن حجر الهيثمي " كف الرعاع.. عن محرمات اللهو والسماع ".

وهذا ما أهل العرب ليكون السباقين على الغرب في هذا المجال ،إذ نجد حتى بعض الدراسات الغربية تشير لريادة العرب و دورهم في تطوير الموسيقى و دراستها ، من هؤلاء "هنري جورج فارمر" من خلال كتابه "حقائق تاريخية عن التأثير الموسيقي العربي" حيث يقول في مقدمة هذا الكتاب " لولا الاكتشافات والتطورات التي قام بها العلماء العرب خلال ازدهار حضارتهم العلمية في البحوث الثلاثة -الرياضيات والهندسة والفلك-، لواجهت هذه العلوم الكثير من البطء والتخلف في تطورها وتقدمها في القارة الأوروبية، وفي ما يخص آخر علوم الرباعية وهي الموسيقية، للأسف لم يقم أحد بتحديد دور العرب وعلمائهم فيما لحق بها من تطور "[1].

لقد تغلب على طابع الموسيقى في هذه العصور الغناء كنشاطَ طاغي ، ليتطور ويدخل على الموسيقى العربية في القرن العاشر الميلادي نظاما مبدعا نتج عن التداخل الذي حصل في الحضارة الإسلامية من جراء التأثيرات للثقافات الأخرى كالحضارة الفارسية والتركية فيما بعد ،وتم إدخال آلات موسيقية جديدة كالقانون والرباب ، وقد وصلت

[1] هنري جورج فارمر، حقائق تاريخية عن التأثير الموسيقي العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، سنة 2015

الموسيقية العربية قمتها في العصر الأندلسي خاصة في الفترة بين القرن الثامن والخامس عشر ميلادي، حيث وصلت إلى حد تشيد المدارس الموسيقية لتكون قرطبة منارة للموسيقى ، وكان "زرياب " إمام الموسيقيين، فمثل هذه الظروف مشجع للموسيقيين من أجل المضي في الرقي وممارسة الموسيقى، فبدأ الاهتمام يزداد بممارستها و حتى دراستها و البحث فيها.

أما بخصوص التصوف، فهذه التسمية يرجعها البعض أنها مشتقة من الصفاء، في حين يرى البعض أنها مشتقة من الصوف غير أنه من خلال تتبع أشعار ابن عربي وغيره من المتصوفة نجد التسمية ترتبط بخرقة الصوف التي كان يلبسها المتصوفون[1].

وقد اختلف الكثير حول تعريفه فنجد معروف الكرخي يعرفه بأنه" الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق"[2] ، أما الشيخ محمد فهر شقفة فله رأي آخر إذ يرى في "التصوف طريقة زهدية في التربية النفسية يعتمد على جملة من العقائد الغيبية أي الميتافيزيقية ،مما لم يقم على صحتها دليل لا في الشرع ولا في العقل ، ويعنى هذا حسب الشيخ أنه يعتمد على جملة من العقائد الميتافيزيقية مما لم يقم على صحتها دليل في الشرع ولا في العقل أي أن تلك العقائد التي تبحث فيما وراء الطبيعة والتي يدعون بأنهم تعلموها عن طريق الكشف أو وردت إليهم عن طريق الخواطر أو الرؤى المنامية كعقيدة البعض في الحلول ووحدة الوجود والحقيقة المحمدية واعتبارها أصلاً لكل حياة بشرية وكونية، وعقيدة البعض الآخر عن النواميس الطبيعية مما لم يخبر بذلك قرآن ولا سنة ولا يقوم على أساس علمي ولا يتفق مع المقاييس العقلية[3] .

أما الشيخ أحمد زروق فيعرف لنا التصوف " بأنه علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه، والفقه لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام، والأصول "علم التوحيد" لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان، كالطب لحفظ الأبدان، وكالنحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك"[4].

إن تعدد و اختلاف التعريفات حول التصوف الإسلامي جعلت من الصعب حصره في مفهوم واحد ،لكن ما يتفق عليه جملة الصوفية أنه السير في طريق الزهد- حسب إبراهيم هلال - والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر في صلاة أو تلاوة ورد – و يضيف –أنه هدفه حتى يضعف في الإنسان الجانب الجسدي ويقوى فيه الجانب النفسي أو الروحي فهو إخضاع الجسد للنفس بهذا الطريق المتقدم سعياً إلى تحقيق الكمال النفسي كما يقولون وإلى معرفة الذات الإلهية وكمالاتها وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة [5].

---

[1]أحمد علي الحسن ، التصوف جدلية وانتماء، دمشق، سنة 1990، ص 19 .

[2] السهروردي ،عوارف المعارف ،دار المعارف ، بيروت ، ص 62

[3]محمد فهر شقفة ،التصوف بين الحق و الخلق ،دار السلفية ،سنة 1970 ، ص 7 .

[4]احمد زروق الفاسي، قواعد التصوف، المحقق : عبد المجيد خيالي ،دار الكتب العلمية ،الطبعة الثانية - سنة 2005، ص 21

[5]ابراهيم هلال ، التصوف الإسلامي بين الدين و الفلسفة ، دار النهضة العربية ، الطبعة الأولى ، سنة 1976 ، ص 1 .

عرف المسلمون على طول تاريخهم الكثير من الطرق الصوفية كانت أهمها فرقة القادرية والسهروردية والشاذلية والششتية والنقشبندية والبكتاشية وغيرها، هناك الكثير منها اضمحل واختفى وهناك مزال لها اتباع وحتى نفوذ قوي وتأثير كبير في أوساط المجتمعات.

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين الموسيقى والتصوف هي علاقة وظيفية، فالتصوف هو ممارسة روحية و قيمية، كانت منتشرة في ثقافات عدة في العالم وعلى مر العصور، إذ نجدها عند الصينين والهنود وحتى على اختلاف الأديان كاليهودية و النصرانية، كما أن اعتبار التصوف معنى للرقي بالمعاني و القيم الفلسفية من عالم الجسد و المادة إلى عالم الروح والسمو، فكانت الوسيلة الوحيدة التي تحقق لنا هذه الغاية هي السماع الموسيقي، لقد كانت الموسيقى واصل بين ما هو دينيّ ودنيويّ بالنسبة للمسلمين وحتى باقي الديانات الأخرى.

لقد كان للحياة المادية التي يعيشها العالم الغربي تأثير سلبي على حياتهم النفسية ، مما سبب لهم فراغ و حالات اكتئاب ، خلقت أمراض روحية أدت لحد الانتحار، وقد كانوا يقبلون على الإسلام لأنهم وجدوا فيه ضالتهم، وكان التصوف المدخل الذي يلجون منه إلى هذا الدين ،ولعل من الأدلة على ذلك توجه أكثرية المثقفين الغربيين للاهتمام بابن عربي وبجلال الدين الرومي ، و نجد هذا في كتاب "السماع الروحي في التقليد الصوفي" لمؤلفه جان دورين الذي يوضح لنا أسباب هذا السماع فيرى أن السماع في التقليد الصوفي هو الاستماع إلى الموسيقى بهدف بلوغ حالة النشوة الروحية أو كما يعبر عن ذلك المتصوفة (تغذية الروح)،فالأمر إذن يتعلق بتقليد احتفالي للموسيقى والإنشاد في طقوس معينة إلى حد ما " أي أن جوهر الموسيقى الصوفية هو روحي ، فهي موسيقى تتملكنا و تحتوينا من خلال التأمل و لها مستويات يحياها المتلقي فيها

3، ترجع في إنشادها إلى نظم الشعر التي نظمها شيوخ الصوفية من شعر وأدعية وأوراد أمثال ابن الفارض والحراق والجزولي وبن مشيش غيرهم ،وكذا أدعية و أوردة الكتانيين والتيجانيين، " وقد ألفت بعض هذه الأوراد بلغة هي مزيج من الفصحى والعامية وألفت أخرى بإحدى اللهجات الأمازيغية إمعانا في استنهاض القوم بلسانهم، مثل كتاب "بحر الدموع" للشيخ محمد بن علي الهوزالي، ومنظومة الأصناكي وغيرهما "[1]، فهذه اللغة تعبر على التجربة الروحية التي لا تقاس بالحدود والأوصاف، ما يسمى في لغة الصوفية، ب(الاصطلاحات الصوفيَّة)ويطلقون عليها أيضا الإشارات أو الرموز الصوفيَّة :وهي عبارة عن ألفاظ، أو كلمات يستعملها الصوفيَّة استعمالا خاصا، للدلالة على أنواع الوجدانات أو أنواع من المعاني الصوفية[2].

فللموسيقى الصوفية ميزات عديدة إذ تتميز بما يلي:

[1] محمد المختار السوسي، التريا ق المداوى في أخبار الشيخ سيدي الحاج السوسي الدرقاوي، ص 206

[2] عدنان الذهبي، في سايكولوجية الرمزية، مجلة علم النفس، مجلد5 ، عدد3 ، فبراير1950 ، ص4

1- ميزة الموسيقى الصوفية أنها تحمل أندلسي ومرات مغاربي وهي تستعمل المقامات. حيث نجد عدة طرق مستعملة أهمها طريقة الحجازية والطريقة الأصبهانية، فالطبوع الموسيقية الأندلسية المعتمدة عند المتصوفة في مجملها 12[1].

2- تتميز الموسيقى الصوفية باحتوائها على الرقص، حيث كان وسيلة ناجعة في التأثير وجلب القلوب لها، وما الشطحات الصوفية إلا محاولة منهم إلى التخلص من تأثير الجسد والطيران بالروح، وأصبح الرقص أحد أركان الصوفية.

3- تتميز الموسيقى الصوفية بأنه عملا جماعيا، ولا تكون حلقات الذكر إلا بالحضور الجماعي الذي يعبر عن التضامن والتوحد بين افراد الطريقة.

4- يتميز الغناء الصوفي أنه الترفع عن العالم المحسوس و اللجوء للعالم الروحي من خلال تخصيص أماكن خاصة كالزوايا و المقامات يرجون التقرب إلى الله دون وسطاء من خلال الحب المطلق و الأبدي.

يعيش المتصوف حالات شعورية مختلفة و يخرج فيها من حالة الإحساس خارج الوعي من خلال مرحلة متقدمة يصل إليها من الذكر و الرقص والشطح ، ليخرج إلى عالم بعيد عن باقي البشر ، يخبرنا بهذا إبن خلدون في مقدمته فيقول : " إن الجسد إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوؤه" و يضيف ابن خلدون " أن ذلك الذكر فإنه كالغذاء لتنمية الروح" [2] ، و ابن خلدون في هذا التصوير نجده يضفي طابع العلمية على التصوف فيمزج بينهما ، في حين يذهب غيره مذهب التأثير بالخوارق فيزعم أن مثل هذه الحالات إنما هي من كرامات الصوفيين [3].

يرتبط الغناء الصوفي بالرقص الذي يعتمد قواعد و أسس يتوارثها المتصوفة ويتوجب الالتزام بها ، ويصف لنا عباس الجراري في كتابه القصيدة هذا فيقول أن " أهم ما يميز رقص الطرقيين أنه يسير وفق قواعد وتقاليد متوارثة بين رجال الطرق، وأنه "يختلف حركة وقوة وحدة باختلاف الطوائف: فإذا كان مثلا رقص درقاوة والقاسميين هادئا ليس فيه غير الهز العمودي للجسم، فإن رقص احمادشة وعيساوة يعتمد على تحريك قوى الجسم والأطراف، مع الضرب العنيف بالأقدام على الأرض" [4] ، و للرقص درجات في الحدة و التمازج مع الحالات النفسية عندما يصل المتصوف إلى الجذب والتوسل و هو ينادي بالمدد ، فيصل إلى حالة من العنف الحركي و قوة في الصوت ، وواصل الغناء الصوفي تبدله و تطور عبر الزمن ، حيث أصبح يتم في دوائر وحلقات يكون الذكر

[1] محمد المنوني/ مج البحث العلمي، ع 14 و 15، س6، س 1969، ص: 168.

[2] ابن خلدون ،المقدمة، الفصل الحادي عشر في عام التصوف، ص: 469

[3] ابن الموقت المراكشي،السعادة الأبدية ، ج 1، المطبعة والوراقة الوطنية ، مراكش ،الطبعة الثالثة ، سنة2011 ص، 53، وكذلك محمد بن الطيب القادري، المثاني ، ج 2،مكتبة الطالب ، الرباط ، ص72-75

[4] الجراري، القصيدة : الزجل في المغرب ،مكتبة الطالب ، الرباط ، سنة 1970، ص 20

والإنشاد أسلوب يستعملون معها الغناء والرقص كوسائل لبلوغ مرحلة الصفاء والخروج من العالم المحسوس ، فكانت منتشرة في غالبية الدول الإسلامية لكن لكل طريقة أتباع يؤمنون بها و أذكار خاصة بهم و أوردة تميزهم .

ولعل الموسيقى العربية بصفة عامة في وصولها إلى المرحلة التي وصلت إليها من تطور يرجع الفضل فيها إلى الغناء الصوفي في إعطاءها دفع ، حيث أن الغناء الصوفي وصل دروته في نهاية القرن التاسع عشر حتى أواخر القرن العشرين ، وكان الفضل لشيوخ الإنشاد الديني في تطوير الموسيقى العربية خاصة في مصر كسيد درويش و سلامة حجازي و غيرهم ، أما في تركيا و التي في تلك المرحلة كانت تحكم سيطرتها على مناطق عربية كثيرة أثرت بدورها في عملية تطور الموسيقى العربية ، يعتبر التصوف العثماني ذا أثر بالغ في تطوير السماع العربي ، لقد ظهرت فرق صوفية عثمانية كثيرة مثل الدراويش والجلوتية والعلوية وغيرها ساهمت في إنتاج سماع روحي ، ومثل هذا السماع يزيد في التواصل الذي يخرج العبد من المحسوس وارتباطه بخالقه ، يقول الهجويري في كتابه (كشف المحجوب) : "اعلم أن السماع وارد من الحق وتزكية لهذا الجسد من الهزل واللهو ولا يكون طبع المبتدئ قابلاً للحديث الحق بأي حال. وبورود ذلك المعنى الرباني يكون للطبع انقلاب وحرقة وقهر، فجماعة تفقد الوعي وجماعة تهلك ولا يوجد أحد يخرج طبعه عن حد الاعتدال في السماع"[1]. فالسماع الصوفي هو وسيلة للتوسل إلى الله من خلال الوجد والدعاء، فكان جزء من حياة الصوفية وأصبح أمر يمارس من طرف العامة.

[1] الهجويري ، كشف المحجوب ،بيروت ، سنة 1980 ،ص 384